



الحقيقة اللغوية من مبدأ التصنيف إلى مبدأ التوظيف.

Linguistic Truth, From The Principle Of Classification To The Principle Of Employment

محمد زايدي *، جامعة أبو بكر بلقايد، zaidi.med13@gmail.com

عبد الناصر بوعلي، جامعة أبو بكر بلقايد، bouali13@live.fr

تاريخ المقال

النشر: 2022-05-15

القبول: 2021-11-04

الإرسال: 2021-08-22

الكلمات المفتاحية



ديسوسير، قيمة، تصنيف،
تفسير، قدرة نحوية، قدرة
تواصلية.

إن احتفاء البحث اللساني الحديث، بتجريد بنية اللغة واستقلالها وتصنيف ووصف خصائصها الشكلية العلائقية داخل مدونة ما، ساهم في الوصول إلى تفسير الملكة اللغوية كقدرة ثابته في الذهن، ليؤسس بعد ذلك إلى تصور يربط بين البنية ووظائف خارجية، بحيث صير الملكة اللغوية من قدرة ذهنية إلى قدرة تواصلية تتخذ موضوعا للبحث وتجعل من الكلام والمتكلم وما يحيط بهما من ملابسات معطى اختباريا في الكشف عن النظام اللغوي للغات الطبيعية، وتوسيع دائرة البحث لتشمل مظاهر تداولية وخطابية ونصية.

Abstract

Keywords

The celebration of modern linguistic research, by abstracting the structure and independence of language and classifying and describing its formal and relational characteristics within a code, contributed to reaching the interpretation of the linguistic queen as a subordinate capacity in the mind, then establishing a perception that links the structure with external functions, so that the linguistic queen has become from a mental capacity to A communicative ability that is used as a topic for research and makes speech and the speaker and the ambiguities surrounding them a test given in revealing the linguistic system of natural languages, and expanding the research circle to include verbal, discursive and textual aspects

De saussure, value, Classification, explanation, gramatical competence communicative competence

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

تري طائفة من الباحثين أنّ ميلاد التفكير اللسانيّ وُلد مع اختراع الإنسان للكتابة، ثمّ ما لبث النشاط الفكريّ اللسانيّ يصبّ اهتمامه على اللغة بالكشف عن أسرارها واستكناه ماهيتها ونظامها والتعرّض إلى مستوياتها وتفكيك رموزها والربط بينها وبين العالم الخارجي منذ الحضارات الإنسانية القديمة (الهند واليونان والعرب).

وبالرغم من سيورة هذا النشاط إلّا أنّه لم يضبط موضوع بحثه إلّا مع أواخر القرن التاسع عشر وحلول القرن العشرين حيث زعم دي سوسير (1913م) أنّ الدراسات السابقة لم تركّز اهتمامها على اللغة في حدّ ذاتها، فهي بذلك لا تكتسي طابعا علميًا، وقد أكّد على أنّ الدراسة العلمية تبدأ من اللغة وتنتهي إليها، وخلّص إلى أنّ اللسان هو الذي يجسّد نظام اللغة، وهو الأوّل بالدرس وفرّق بينه وبين الكلام واللغة، بحيث يقوم البحث بوصف وقائع الكلام انطلاقاً من مدونة لغوية محصورة زماناً ومكاناً.

صحيح أنّ كتاب «محاضرات في اللسانيّات العامة» المنسوب إلى دي سوسير، أضى منذ انعقاد المؤتمر العالمي الأول للغويّين بلهاي سنة 1928، الكتاب الملمه لكلّ من له رغبة في مدارسة اللغة والألسن، فنشأت عنه النظريات وقامت من حوله المدارس، على تنوّع مناهجها، واختلاف آلياتها وأدواتها وتضارب مواقفها منه (سوسير، 2019) لكنّ هذا لا ينفي أنّ مفهوم القرابة القائمة بين الألسن أسهم بشكل كبير في وضع اللسانيّات على الطّريق العقلاني (leory, 1967)

وبما أنّ التراكم صفة ثابتة في العلم، فلا غرو أن يكون ما جاء به دي سوسير، هو امتداد لجهود من سبقوه من النّحاة واللغويّين، الذين شغلوا باللسانيّات التاريخيّة واللسانيّات المقارنة، ولا شكّ في أنّ من جاؤوا بعده استفادوا من منهجه العلمي، وأسّسوا وطوّروا على إثره نظريّات لدراسة اللغة البشريّة، وتجدر الإشارة هنا إلى اتّجاهين بارزين في الحقل اللسانيّ: الاتّجاه التوليديّ، والاتّجاه الوظيفيّ.

تتقاطع هذه التيارات بما فيها البنيويّة في مبادئ أساسيّة في تناولها للظاهرة اللغويّة، وفي المقابل نجد تناولها هذا يتشعب

بتشعب التّصوّرات والأسس المعرفيّة والفلسفيّة، المتخذة أصولاً لها، ولا شكّ أنّ السّبب في ذلك هو تقدّم البحث في اللغة وتطوّر النّماذج اللسانيّة، وارتباطها بمعارف وعلوم أخرى، و"كما تتعدّد العلوم تبعاً لاختلاف موضوعات الدراسة فإنّ العلم الواحد كاللسانيّات مثلاً، يمكن أن يتعدّد بسبب ما قد يحصل من تنوع في موضوعها الذي هو اللغة" (الأوراغي، 2013)

إنّ تكشّف اللغة لدارسها في أشكال متعدّدة، وألوان مختلفة، أجّج النقاش حول «علاقة النظريّة اللسانيّة بموضوع بحثها»، وجعل منها قضية محوريّة، دارت حولها الكثير من المباحث في سياق الحديث عن ابستمولوجيا اللسانيّات، وكذا ضمن المقدمات التي تمهّد لمبادئ التّظريّات اللسانيّة، وقيمة هذه المسألة تبرز باعتبارها عاملاً رئيساً في رسم الإطار النظري والتّطبيقيّ لأيّ بحث في ميدان اللغة.

ومن ثمّ فإنّ الإشكال الذي لا يغيب دوماً والذي يُطرح بشكل دوريّ وملحّ، هو عدم استقرار الأبحاث اللسانيّة في بلورة موضوع اللغة، وحسم الخلاف بينها، وهل بالإمكان القول: إنّ "الموضوع هو الذي يحدّد نظريّته ويؤثّر فيها أم النظريّة هي التي تحدّد موضوعها وتؤثّر فيه" (هيملسلاف، 2018)، وما هي طبيعة هذا الموضوع بدءاً من المنظور التّصنيفيّ إلى المنظور الوظيفيّ؟

يفترض في أيّ نموذج لسانيّ أن يقف خلفه عتاد كبير من العلوم والمعارف، بل إنّه بالإمكان القول بأنّ هذه النّماذج تتحدّد أهدافها وتُسطّر فرضيّاتها حسب تصوّراتها العلميّة ومنطلقاتها الفلسفيّة للظواهر اللغويّة.

لذا خُطّت هذه الورقات لوصف وتحليل مدى تأثير هذه التّصوّرات في بلورة موضوع اللغة في أهمّ التّيارات اللسانيّة بدءاً من اللسانيّات السوسيرية وانتهاءً باللسانيّات الوظيفية محاولين بذلك بيان الخلفيات الإبتيميّة التي ارتكزت عليها هذه التيارات.

إنّ إفادتنا لبلوغ هذه الأهداف كان جُلّها من الكتابات التمهيدية، والمتخصّصة، والمترجمة باللغة العربيّة، ونذكر على

سبيل المثال؛ في "جوهري اللغة" لدي سوسير، و"حول مبادئ نظرية اللغة" للويس هيمسلاف، و"آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل" لنعوم تشومسكي، و"اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي: مفاهيم وأمثلة" لمصطفى غلفان، و"المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد" لأحمد المتوكل، و"التواصل اللغوي. مقارنة لسانية وظيفية (نحو نموذج لمستعملي اللغات الطبيعية)" لعز الدين البوشيخي.

1. التصور التصنيفي للغة:

مبدئياً، لا يوجد أي مبرر يمنعنا من تصور اللغة موضوعاً رياضياً، أو اجتماعياً أو نفسياً (الفهري، 1993) وبالنسبة لسوسير فإن اللغة هي مؤسسة اجتماعية يتداولها الناطقون بها بما أوتوا من القوانين المنظمة لها، كما أن اللسان شكل وليس مادة، ولا ينبغي لنا أن نتحدث عن وجوده وكيونته إلا بحدوث تفاعلات بين الأشكال المختلفة التي تندرج ضمن نسق لساني، هذه الأشكال لا بد لها من أفكار تعانقها، فهي ليست أشكالاً فارغة، وأي دراسة "للسان ما، بوصفه نسقا، أي مورفولوجيات، تتمثل كلها في دراسة استعمال الأشكال، أو في دراسة تمثيل الأفكار، وهو الشيء ذاته، لكن الخطأ يكمن في الاعتقاد بوجود أشكال (قائمة بذاتها مستقلة عن استعمالها)، أو الاعتقاد بوجود أفكار (قائمة بذاتها مستقلة عن تمثيلها)" (سوسير، 2019، صفحة 173)

وإن النظر إلى اللسان بوصفه نسقا من العلامات التي تنتظم أشكالاً تستمد قيمها بالتقابل والاختلاف، يهدم بعض القناعات التي تؤمن بأن "الاعتقاد في إمكانية الاستغناء، في اللسانيات، عن ذلك المنطق الرياضي السليم، بحجة أن اللسان شيء متجسد، يؤول إلى وضع ما، وليس شيئاً مجرداً كائناً، هو اعتقاد فاسد نشأ عن بعض توجهات العقل الألماني" (سوسير، 2019، صفحة 177)

إن اعتماد التجريد كأصل في النظر لموضوع اللسان يتأتى من ماهية اللسان نفسه، فهل في وسع اللسانيات أن تجد أمامها موضوعاً معطى، كما تجد علوم الفيزياء، والنبات، والتجوم، وغيرها، حُذ سلسلة من الأصوات مثل: «ب+ح+ر» يُمكن اعتبارها كيانا ينتمي إلى مجال الصوتيات السمعية أو الصوتيات الفيزيولوجية، لكن لا يمكن بأي حال من الأحوال

اعتبارها كيانا لسانياً، لأنّ اللسان لا وجود له إلا إذا ارتبطت «ب+ح+ر» بفكرة ما (سوسير، 2019، صفحة 175)

يحدد البنويون مهمة اللساني في قولهم المشهور: دراسة اللغة لذاتها ووصفها وصفا موضوعياً، وهو ما يلزم عنه اتخاذ مدونات لغوية مجالاً لتلك الدراسة، والغرض من استهداف هذه النصوص كما يقول «همسلاف» هو أن تدلنا نظرية اللغة على منهج نطمح بواسطته على التعرف على النص المعطى من خلال وصفه وصفا شاملاً، خالياً من التناقض، كما يُمكننا بالطريقة نفسها أن نتعرف على أي نص آخر من الطبيعة المفترضة نفسها بتوفير الأدوات التي تقبل الاستعمال مع أي من تلك النصوص والنص بالنسبة لهم هو الحيز الاختباري الوحيد الذي يمكن اللساني من الكشف عن تلك العلاقات والترابطات التي "يُفرضي إليها التحليل بحيث لا نرى أمام أعيننا، إلا مجرد تقاطعات لحزم من تلك الترابطات" (هيمسلاف، 2018، صفحة 25) وهو ما سعى إليه أغلب اللسانيين البنويين في أمريكا إلا ما ندر منهم، فقد حصروا موضوع البحث اللساني في وصف المتن اللغوي وصفا دقيقاً، يُفرضي إلى ترتيب وتصنيف معطياته إلى فئات (غلفان، 2013)

وإن الغاية من الدراسة هي الوصول إلى استخراج النظام الذي تُسج به النص، والنسق القائم خلفه، ووضع كل عنصر ضمن فئته، ورصد شبكة العلاقات وأنواع الترابطات، فإذا تم ذلك، فإن "من العبث أن نطالب بالتفسير، نحن نتغيّا الوصف بكل دقة، ولا نحاول أن نفسر، فكل ما هو من قبيل التفسير في الوصف يعدّ ببساطة مضيقاً للوقت، ولا ينبغي أن يُعتمد به في إطار النظرية اللسانية" (J.P.Corneille, 1977)

يأتي هذا بخلاف ما تذهب إليه المدرسة التوليدية بزعماء تشومسكي، الذي يرى بأن حقيقة اللغة نفسية قبل كل شيء، وإذا كان ذلك كذلك فهل يفترض أن يمثل "ظهور اللغة ونمو الدماغ المترتب عنها أصل القدرات الذهنية البشرية أم أن النمو المسبق المستقل للدماغ ونمو القدرات الذهنية البشرية الناتجة عنه أدّى إلى ظهور اللغة" (موشلار، 2003)، وهل نكتفي بجمع وتصنيف الوقائع اللغوية ودراستها ومن ثم استنباط ووصف النظام المسؤول عن رصفها ونظمها، أم نتجه إلى البحث عن كيفية حدوثها وماهية العضو المسؤول.

يمكننا التمييز عموماً بين تصورين في تاريخ الفكر العلمي: تصور تصنيفي؛ قامت عليه النظرة السوسيرية، يرى أن الغاية من العلم هو جمع المعطيات الموضوعية القابلة للتحصيل، ليتم ترتيبها وتصنيفها لاستخلاص القوانين العامة، ويعتمد هذا التصور على جملة من المبادئ المعروفة في التفكير العلمي التجريبي، منها التجربة والملاحظة والاستقراء. وتصور تفسيري يرمي تطور العلم بخلق فرضيات تتصف بالكليّة والشمول يتم روزها بالعودة لمعطيات الواقع (غلغان، 2010)

وقد أسهم هذا التصور الأخير في بناء نظرية لغوية - هدفها الوصول إلى فهم الحقائق الكامنة خلف الكيانات اللغوية- عند تشومسكي ومن اقتضى أثره من التوليديين، مستثمرين التصورات التي جاء بها التيار البنوي لتطوير هذه الرؤية اللسانية التي أخذت على البنويين عجزهم في تجاوز الوصف، والانتقال إلى تفسير الظواهر اللغوية، حيث ربط التوليديون بين "البنية اللغوية والبنية المعرفية لدى الإنسان" (الوعر، 1989)

كما أدى البحث عن تفسير الظواهر اللغوية ورصد الأجهزة الكامنة خلف إنتاجها وتلقّيها إلى اعتبار اللغة جهازاً معرفياً تطوّر مثلما تطوّرت الأجهزة المعرفية الأخرى التي يمتاز بها النوع البشري، فهي ذات طبيعة أحيائية، "وإذا ما بدأت تنظر إلى اللغة، لا بوصفها المعنى الواضح للتفرد الإنساني، بل بوصفها تأقلاً أحيائياً لوصف المعلومة، فإنه لن يصبح مقنعاً لك بعد ذلك أن تنظر إليها على أنها المكوّن الرئيس للفكر" (بنكرز، 2000) بل القول بأنها نتيجة تكيف انتقائي لأجل التواصل، أو لأي وظيفة أخرى هو قول باطل لا نجد له أي دليل تجريبي يثبت صحته، وهذا لا ينفي أنها قدرة أحيائية بالغة النفع، تمكّن النوع البشري من امتيازات معرفية خارقة (غاليم، 2007)

ولو جيء باللغة من أجل التواصل فقط، لم يكن استعمالها في أحيان كثيرة موجّهاً إلى الذات نفسها، وهو «الكلام الداخلي» عند الكبار والمونولوج عند الأطفال، بل هي وسيلة مثالية ومتكاملة للربط بين الصوت والمعنى يجعلها تختلف عن الأنساق الأحيائية الأخرى (غاليم، 2007، الصفحات 74-75)

2. التفسير بديلاً عن التصنيف:

إنّ الربط بين اللغة والمعرفة والربط بين اللغة والذهن في فلسفة تشومسكي اللغوية نقل البحث من مجال دراسة ووصف اللغة في حدّ ذاتها إلى معرفة اللغة كما هي ممثلة في أذهان متكلّمها بعيداً عن سياقها الاستعمالي، وأسّس لوضع نماذج نحوية يمكن تصنيفها كالتالي: "نماذج نحوية مؤسّسة تركيبياً، ونماذج نحوية مؤسّسة دلاليًا" (البوشيخي، 2012)

يتحدّج تشومسكي في حصره للنحوية على الجانب التركيبي - للغة ما - بحجج معرفية، تحاول ضبط الموضوع اللساني ضبطاً علمياً يتحدّج في إقحام المكوّن الدلالي في دراسة اللغة، لأنّه لا يعطي نتائج دقيقة، ومردّ ذلك إلى حدس المتكلم كما رأى تشومسكي في بداية أعماله، أنّه حدس يعتمد على المعايير التركيبية دون الدلالية في تحديد نحوية الجمل (غلغان، 2010، صفحة 40)، بل ويكفل للمتكلّم الكشف عن شرح وتأويل أيّ جملة، والتفريق بينها وبين جملة أخرى في نفس المعنى (العلوي، 2019)

ومن ثمّ فإنّ الموضوع المُستهدف في دراسة اللغة، هو دراسة نسق القدرة وليس الإنجاز، الذي تتدخل فيه عوامل متعدّدة (وحيدي، 2017) ممّا جعل قدرة المتكلم النحوية مدار البحث اللساني في الدرس التوليدي، ورنه أيّ تقدم في دراسة الإنجاز اللغوي بمدى الفهم الذي يمكن إحرازه في موضوع القدرة اللغوية (البوشيخي، 2012، صفحة 18)

1.2 القدرة النحوية في الأدبيات التوليدية:

تُعرّف القدرة النحوية بأنّها مجموع القوانين والقواعد الموجودة في ذهن المتكلم، والتي تؤهّله على تركيب وتلقي ما لا حصر له من الجمل النحوية، فهي معرفة لغوية تُمسك بزمام قواعد لغة معيّنة، وتتوافر لدى متكلّم تلك اللغة، "وتمكّنه من إنتاج ما لا حصر له من الجمل النحوية، التي لم يسبق له أن أنتجها، ومن تأويل/ فهم جمل لم يسبق له أن سمعها. إنّ كلّ متكلّم يملك آليّة مولّدة بكيفية واضحة ومحدّدة للجمل النحوية في لغة معيّنة إنتاجاً وتأويلاً صحيحين. إنّ هذه المعرفة الضمنية بقواعد اللغة، هي ما يسمّيه تشومسكي: «القدرة اللغوية» ((Compétence linguistique) (غلغان، 2013، صفحة 41)

تؤهّلنا هذه القدرة بالإضافة إلى ما سبق؛ إلى معرفة الجمل النحوية وغيرها اللانحوية، والجمل التي يؤوّل بعضها بعضاً،

جمل سليمة تركيبياً ودلالياً وفي نفس الوقت لا نملك القدرة التداولية التي تؤهلنا لاستعمالها استعمالاً مناسباً (البوشيخي، 2012، صفحة 20)

ويميز بين نوعين من أجهزة الأداء، كل جهاز مسؤول عن مظهر من مظاهر اللغة؛ نطقي (إفصاحي/ إدراكي)، ومفاهيمي (قصدي)، يتمخض عن هذا افتراض تعابير مؤلدة تتضمن مستويين بيئيين، واحد يقدم المعلومات والتعليلات للأجهزة النطقية/ الإدراكية، والآخر يقدمها للأجهزة المفاهيمية/ القصدية، عموماً يفترض بالسطح البيئي الأول أن يكون تمثيلاً صوتياً (شكلاً صوتياً). لكن طبيعة الآخر هي أكثر إثارة للجدل، فلنسمح بتسميته «الشكل المنطقي» (تشومسكي، 2009، صفحة 80)

إنّ الطفل يولد مزوداً بمعرفة دقيقة ومحددة بالأصول النحوية الكلية وباستعداد يؤهله لتوظيف هذه المعرفة في التعرف على ما يتلقفه من كلام، وهو التفسير الوحيد الذي يجعل من هذه الأصول، أصولاً لغوية كلية كجزء لا يتجزأ من العقل (ليونز، 1985).

في مقابل كل ذلك فإنّ التفريق بين القدرة والإنجاز ليس له أي مبرر علمي؛ لأننا بهذا الشكل نؤسس لنظام قواعدي مستقل عن الإنجاز الذي تحيلنا وقائعه المختلفة على وظائف لسانية معينة. ومن جهة ثانية لا يمكننا أن نقوم ببناء نظرية على أساس قدرة مثالية ومجردة؛ لأنّ هذه القدرة اللسانية المثالية تستند إلى نظرية مستقلة عن المحيط النفسي والاجتماعي الذي تندرج فيه اللغة المدروسة، ويعتبر ديل هايمز، أنّ ما يميز به الفرد المتكلم هو امتلاكه لقدرة أكبر وأشمل وأكثر وظيفية ممّا يقترحه النحو التوليدي، وهي القدرة التواصلية التي لا تمكّن من القدرة على إنتاج وفهم ما لا حصر له من الجمل النحوية، بل تتعلق باشتغال السلوك اللغوي في شموليته وواقعيته وهي مختلف السياقات والمقامات الممكنة لتحقيق كل أغراضه التواصلية في أبعادها الفردية والجماعية (غلغان، 2010، صفحة 49)

3. التّصوّر الوظيفي:

لقد أدّى الاهتمام بالقدرة التواصلية في البحث اللساني إلى اعتبار اللغة أداة تواصلية من الدرجة الأولى، يراعي استعمالها الوظائف التي تزخر بها في إنشاء سلسلة من الكلمات للتعبير

وإدراك بنيات الجمل، وضمن كشف اللبس (العلوي، 2019، الصفحات 26-27) وكلّ هذه العمليات تتمّ على مستوى الذهن، أين توجد القدرة النحوية كجزء منه، مجردة من كلّ شيء خارج اللغة، فهي لا تخضع للملابسات المحيطة باستعمالها، إنّما هو نظام من القواعد يتحكم في بناء/ إعادة بناء تراكيب لا حصر لها، ومن هنا يتحتّم علينا في دراسة اللغة أن نكشف عن هذه القدرة، دون التعرّض إلى ما يترتب عنها من منجز لغويّ في سياق اجتماعي معيّن،

ولئن كانت القدرة اللغوية تجسّد النموذج المثاليّ لما هو مشترك بين المتكلمين بلغة معيّنة، فإنّ الإنجاز يمثل الممارسة الفردية للغة والصورة الواقعية والملموسة للاختلافات والتنوّعات التي توقّرها، نظراً إلى تعدّد المعطيات والعوامل غير اللغوية التي تتدخل فيه (غلغان، 2013، صفحة 45)

إنّ الانطلاق من الإنجاز كسبيل للبحث في اللغة، واستجلاء ماهيتها، واختبار نظامها، يتطلب تضاعف علوم معرفية أخرى تختصّ بالسياقات غير اللغوية، وتُساند البحث اللغوي، فالبحر يلفظون الكلمات في ظروف ملتبسة لا تتصف بالنموذجية، فهم يشيرون إلى القطط، ويلعبون الشطرنج، أو أيّ شيء آخر، ويعبّرون عن أفكارهم، ويفهمون عن الآخر، أمّا أدمغتهم فلا تفعل ذلك (تشومسكي، 2009)، إنّ اللغة لا تعبّر عن الواقع كما يبدو لنا ذلك، ومجموع التعبيرات التي نستعملها لا تطابق في كثير من الأحيان ما نريده منها.

نحن نقف أمام إقصاء مبرر وممنهج للجانب الاستعماليّ للغة، ذلك لأننا لا يمكن أن نحيط بالإمكانات الهائلة التي تتمتع بها اللغة أثناء الاستعمال، ولو تأملنا قليلاً، لوجدناها مزاجات لا متناهية بين الصوت والمعنى، يصعب علينا أن نحيط بها علماً، إنّ أقصى ما تبلغه معرفتنا باللغة هو وضع نسق متناهٍ من القواعد لهذا القدر من المزاجات (الفهري، 1993، صفحة 45)

لم ينكر تشومسكي البعد التداوليّ للغة، فقد ميز بين قدرة نحوية وأخرى تداولية، تدلّ الأولى على معرفة خصائص الجملة الصورية والدلالية وتتضمن قواعد تركيبية وصوتية ودلالية، وتدلّ الثانية على الكيفيات المصاحبة لاستعمال هذه الجمل في سياق ما، ومما يدعم التمييز بين القدرتين - في تصور تشومسكي، أنّه بإمكاننا أن نملك قدرة نحوية تؤهلنا لإنتاج

عن مراده، فكان هذا عاملا في "تبلور موقفان: أحدهما يعطي الشكل اللغوي وجودا ذاتيا مستقلا يجعله خاضعا لمبادئ خاصة، تحددها طبيعة الملكة اللغوية، في حين يذهب الآخر إلى القول إنَّ الشكل اللغوي لا يتحدّد إلا من خلال علاقته بالوظيفة التي يؤدّيها، إذ إنّها تحدّد طبيعة الشكل اللغوي" (وحيدي، 2017، صفحة 08).

إنّ التسليم بالوظيفة التّواصلية والتّبليغيّة للغات الطبيعيّة في أدبيّات الدّرس الوظيفي، يفترض حصر موضوع بحثه اللّساني في مجموعة من القدرات التي تدخل ضمن ملكة تؤهل الإنسان للانتفاع باللّغة، بغية تحصيل ما لا يُستطاع تحصيله إلا باللّغة، ويندرج هذا المسعى -في السّعي إلى إقامة جسر مناسب بين المسلّمات النّظريّة لأيّ نموذج لسانيّ وبين تحديد موضوع بحثه- ضمن الروايات التي يُقاس بها مدى الانسجام والاتّساق في أيّ نظريّة لسانية حديثة.

يؤكد سيمون ديك أن اعتبار اللّغة «أداةً مجردة»، يُفقدّها ميزتها الوظيفيّة في الاستعمال، كما أنّ النّسق التّحتي الذي يتحكّم في رصف العبارات اللّغويّة يُعدّ نسقا وظيفيّا، مبينا في نفس الوقت أنّ التّساؤل عن السّر الذي يجعل من اللّغة شيئا منظّما؟ تساؤل غير مُجدٍ إذا دُرِس في مستوى التّجريد دون التّنبّه إلى السّؤال الأصح؛ لماذا وُجدت اللّغة منظّمة، إنّ القصد التّداوليّ خلف هذا السّؤال هو أنّ العبارة اللّغويّة يمكن أن تكون مفهومة بشكل صحيح إذا روعيت وظيفتها في المقام (رحموني، 2020).

إنّ المبدأ العام في كلّ نظرية ذات صبغة وظيفيّة، يقوم على اعتبار البنية تابعة للوظيفة، وأنّ الخصائص الصّرفيّة/ التركيبية تأخذ صيغها ومواقعها على أساس ما يتوافر في البنية التّحتية من سمات دلالية وتداولية. هذا المبدأ العام قائم في الغالب من الأحوال، إلّا أنّ قيامه لا يمنع من وجود ظواهر - تختلف باختلاف اللّغات - تؤشر إلى أنّ المستوى الصّرفي/التركيبيّ بعض الاستقلال، وأنّ بعض القواعد الصّرفيّة التّركيبية تجري في معزل عن المعلومات المتوافرة في البنية التّحتيّة (المتوكّل، 2006).

عموما ينطلق التحليل الوظيفي على اعتبار اللّغة عنصرا ثقافيا يُكتسب عن طريق التفاعل والمحاكاة، ولا يتطلّب افتراض بنيات أو تمثيلات لسانية فطريّة، أو وجود نحو كليّ

على نحو ما يفعل تشومسكي وأتباعه. (وحيدي، 2017، صفحة 25)، فهو بذلك يحدّد موضوع بحثه في وصف وتفسير ملكة اللّغة التّبليغيّة ل(المتكلّم/ المستمع)، سعيا منه لتحقيق وصف لغويّ على قدر كبير من الشمولية، لأنّه لا يتناول الجوانب الصّورية (الصوت، الصرف، التركيب) فحسب، بل يتناول قبلها الجوانب التّداولية المرتبطة بوظيفة التبليغ التي تؤدّيها اللّغة في تفاعلاتها مع المتخاطبين، وبعبارة أدق فإنّ الوصف اللّغوي، يرصد التّرابط القائم بين الخصائص البنيويّة الشكليّة، والخصائص التّداوليّة المقامية (بعيطيش، 2006/2005)، ولا يمكن للنّحو أن يبلغ الكفاية التّداوليّة إلّا إذا بلغ الوصف الكافي لهذا التّرابط.

ومما يعزّز هذا الطّرح، فكرة الوظيفيّين فيما يخصّ اكتساب اللّغة عند الطّفل، فبالنسبة لهم لا يتمّ اكتسابها كمعطى لغويّ بحت، يتجسّد في امتلاك قدرة تؤهل الطّفل لبناء جهاز قواعيديّ يتحكم في اللّغة صوتيّا وصرفيّا وتركيبيا، بل يتعلم مع هذا الجهاز ما تؤدّيه البنى اللّغويّة من أغراض تواصلية، فالطفل في محيط اجتماعي معين يكتسب، نسق اللّغة ونسق استعمالها كنسقين متمازين، حيث يستتضمّر أثناء اكتسابه قواعد لغته ما يحكم استعمالها في مقامات التّواصل في الآن نفسه. فعلى سبيل المثال، حينما يريد متعلم اللّغة العربيّة تصحيح معلومة ما في موقف تواصليّ ما، فإنّه يقوم بتفعيل القاعدة النّحويّة المناسبة لهذا الموقف، حيث يقوم بنقل أحد عناصر الجملة إلى الموقع الصّدر (المتوكّل، 2006، صفحة 36)

1.3 القدرة التواصلية موضوع النّحو الوظيفي:

إنّ اكتساب اللّغة وتوظيفها يتمّ عن طريق ما اصطلح عليه في الدّرس الوظيفيّ بـ «القدرة التّواصلية»، التي يمتلكها كلّ مستعملي اللّغة الطبيعيّة، وهو ما يتمخّض عنه وجه الاختلاف بين موضوع البحث في الدّرس التّوليديّ التّحويليّ الذي يحصره في وصف الملكة اللّغوية أو النّحوية، والدّرس الوظيفي الذي يهدف إلى وصف وتفسير الملكة التّواصلية باعتبارها مجموعة من الملكات تضمّ الملكة اللّغويّة،

تُعرف القدرة التّواصلية (communicative competence) بأنّها: "مجموعة من الملكات أو الطّاقات تفعل وتتفاعل في عملي إنتاج الخطاب وفهمه وفقا للموقف التّخاطبيّ ونمط

الخطاب متيحة بذلك التّواصل بين مستعملي اللّغة الطّبيعيّة " (مليطان، 2014).

وتتّسم القدرة التّواصلية بشمولها وعدم قابليتها للتجزئ، فهي لا تنحصر في معرفة القواعد الصوتيّة والصّرفيّة والتركيبية والدّلالية بل تتعدّها إلى معرفة القواعد التّداوليّة، بحيث تمكّن مستعمل اللّغة الطّبيعيّة من فهم وإنتاج تعبيرات سليمة تتناسب مع المواقف التّواصلية المختلفة لتحقيق أغراض معيّنة، ولا يمكن انجاز عمليّة تواصلية إلّا بتضافر ملكات غير لغويّة (منطقيّة، معرفيّة، اجتماعيّة، إدراكيّة) بالملكة اللّغويّة (المتوكّل، 2006، صفحة 32).

ويمكن تلخيص ضوابط الاقتدار للقدرة التّواصلية كما حددها رضا كشو (كشو، 2016) كالآتي:

1_ توليد الجمل والتّعبير

2_ ربط هذه التّعبير بالسياق اللّغويّ وغير اللّغويّ.

3_ تّمييز النّص بما يوافق الأغراض والأهداف الذي يرمي إليها.

4_ استجلاء الأعراف الاجتماعيّة والثّقافيّة لنصّ ما

4. الخاتمة:

يبدو ممّا سبق؛ أنّ النّظريّات اللّسانية تحدّد موضوع دراستها لأيّ لغة بشرية تبعاً لمنطقاتها الفكرية وتصوراتها العلميّة، وبما أنّ النّشاط العقليّ الإنسانيّ مستمر، فإنّ تغيّر هذه الأفكار، والتّصورات شكّل سبباً مهمّاً في اختلاف هذه النّماذج في صياغة أهدافها وموضوعاتها.

ومهما يكن فإنّه من الصّعب إرجاع هذا الاختلاف إلى النّماذج وحدها، فلا يمكن التّساهل بشأن طبيعة اللّغة المعقّدة وحضورها في حياة الإنسان كميّزة ميّزته عن سائر الأنواع الحيّة وبالتالي فإنّ هناك جسراً مزدوجاً الطّريق تربط بين التّصورات العلميّة والخلفيّات الفكرية _لأيّ نموذج لسانيّ_ وبين اللّغة البشريّة، تجعل من اللّغة عاملاً مؤثراً ومتأثراً.

وبغض النّظر عن ملامستها لحقيقة اللّغات الطّبيعيّة، فإنّ التّيارات اللّسانية الحديثة الكبرى بدءاً من البنيويّة وانتهاء إلى الوظيفيّة، أسهمت بشكل كبير في تحقيق كثير من الكفايات وبلوغ العديد من الأهداف.

فانطلاقاً من العلامة اللّغويّة استطاع تروبتسكوي بطريقة دقيقة صياغة أول منوال صوتي، يُمكن من خلاله دراسة كل أصوات اللّغات الطّبيعيّة، وتحديد كل أنماط التّقابلات، وإبراز الوظيفية التّواصلية للأصوات في سلسلة الكلام، كما استطاع جاكبسون أن يؤسّس للنموذج التّواصليّ بعناصره الست، وما يترتّب عن هذا النموذج من وظائف لغويّة.

وفيما يتعلّق بالنّحو التّوليديّ فإنّه من الجدير بالذّكر؛ ما قدّمه النّحو التّوليديّ بدءاً من البرنامج "ما قبل المعيار" إلى "البرنامج الأدنوي"، حيث نقل البحث اللّسانيّ من حدود الوصف إلى خصوصيّة التفسير، ووضع صياغة جديدة لقواعد اللّغات الطّبيعيّة، وسعى لإبراز العلاقات المشتركة التي تجمع جميع الأنحاء، وإيجاد برامج صورية رياضيّة تمثّل الملكة اللّغويّة، وتتيح استغلالها آلياً عن طريق الحواسيب والبرامج الذكيّة، حيث أفاد الحاسوبيون من النتائج التي حقّقها اللّسانيّون، لتطوير خوارزميّات ملائمة للبرمجيّات الحاسوبية التي تعالج اللّغات الطّبيعيّة.

بخلاف ذلك لم يكتف النّحو الوظيفيّ بوضع نماذج صورية في دراسته للّغات الطّبيعيّة، إنّما تبوّأ المقولة المركزيّة التي تؤمن بأدائيّة اللّغة كوسيلة للتّواصل، ممّا جعل البنية انعكاساً صورياً للوظيفة، وكرّس لمفهوم الخطاب بديلاً عن الجملة، واتّخذ من نموذج القوالب نموذجاً يحاكي نموذج مستعمل اللّغة الطّبيعيّة، كما سعى هذا التّيار اللّسانيّ لتحقيق الكفاية التّفسيّة والتّداوليّة والنمطيّة.

قائمة المراجع باللّغة العربيّة:

أحمد المتوكّل. (2006).

آن روبول وجاك موشلار. (2003).

جون ليونز. (1985).

رضا كشو. (مارس، 2016)..

ستيفن بنگر. (2000).

عبد القادر الفاسي الفهري. (1993).

عز الدين البوشيخي. (2012).

عزيز العماري، و عبد الرحمن رحموني. (2020).

فرديناند دي سوسير. (2019).

كمال رشيدة العلوي. (2019).

لويس هيملسلاف. (2018).

مازن الوعر. (1989).

محمج غاليم. (2007).

محمد الأوراعي. (2013).

محمد حسين مليطان. (2014).

محمد وحيد. (جوان، 2017).

مصطفى غلفان. (2010).

مصطفى غلفان. (2010).

مصطفى غلفان. (2013).

نعوم تشوميكي. (2009).

يحي بعيطيش. (2006/2005).

قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

J.P.Corneille. (1977).

leory, M. (1967).